في الأدب الانكليزي

ماثيـــو ارنولد

Mathew Arnold

بقلم الأستاذ خيري حماد

مقدمة :

لقد كان القرن التاسع عشر بثوراته المختلفة ونهضاته العديدة باعثاً عدداً من الرجال الذين اشتهروا في شتى مناحي الحياة من سياسة واقتصاد، وفلسفة وتشريع، وأدب وحرب . ولكل دولة من الدول الأوربية عدد من الرجال الذين تفاخر بهم غيرها من سائر أمم الأرض . فظهر في بريطانيا في هذا القرن طائفة من عظام الرجال فاقوا أقرانهم في مختلف الميادين وأخص بالذكر منها ميدان الأدب .

برز نجم كثير من الشعراء والروائيين والنقاد والفلاسفة الذين رفعوا إسم انكلترة عالياً في ميدان العلم والأدب فرأينا بيرون وشلي وكيتس وتنسون وبراونتج يسمون في رفع شأن الشعر واعلاء شأوه . وشاهدنا أوستن واليوت وريشاردسون وستيفنسن وسكوت وهاردي ينهضون بالقصة نهضة لا مثيل لها في تاريخ الأدب الانكليزي . وطالعنا المقالات النقدية العديدة التي كان يكتبها عدد من مشاهير النقاد أمثال هازلت وجفريز وكارليل وارنولد . وأما الفلسفة فقد تناولها نفر من كبار المفكرين الإنكليز أمثال كارليل وداروين وارنولد .

لم تكن قريحة ارنولد مقتصرة على الشعر بل تعدتها إلى المقالات والفلسفة والتربية والنقد . ولا غرو أن يحسبه الكثيرون خير ممثل في إنكلترة في القرن التاسع عشر .

ولقد ظهرت هناك منذ وفاته كثير من الكتب التي درسته درساً مسهباً . أضف إلى ذلك المقالات الجمة التي تناولت كل ناحية من نواحيه المختلفة فبدأت شهرته بالإزدياد وتفوقه يظهر على سائر أقرانه منذ أن ووري في التراب فأصبح الآن معروفاً لدى جميع الأدباء والكتاب من بسائر أمم الأرض المتحضرة .

حياته :

ولد ماثيو ارنولد في مدينة ليلهام (Laleham) من ولاية مد لسكس (Midlesex) في اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٢٢ ، وكان والده الدكتور توماس ارنولد الذي اشتهر برآسته لمدة طويلة مدرسة رگبي (Rugbuy) وكان ماثيو ارنولد البكر من تسعة أطفال أحبهم والدهم الحب الجم لإشتغاله في عالم التربية والتعليم مدة ليست بالقصيرة. أما والدته — ماري بنروز (Mary Penrose) فقد عاشت ثلاثين سنة بعد وفاة زوجها . وكانت على جانب عظيم من الثقافة والعلم مما قربها إلى ولدها النابغة فظل على ولائه لها وحبه إياها طوال حياته الكثيرة المشاغل .

وفي سنة ١٨٢٦ انتقلت العائلة إلى (رگبي) وظل ارنولد في ليلهام يتتلمذ على خاله القس المحترم جون بكلند (john Buchland) ولم يكن الدكتور ارنولد ميالا إلى الضواحي التي تحيط بمدينة رگبي ، ولذلك ابتاع منزلا في تكس هاو (Toxhou) حيث كان يقضي أيام الآحاد والراحة بين زوجته وأولاده . وكان لقربهم من المدينة التي عاش فيها وليم ورد زووث أثر عظيم في حياة الطفل ماثيو .

وفي سنة ١٨٣٦ أرسل ماثيو إلى مدينة وينشستر حيث درس على الدكتور موبرلي (Moberly) ولكن لم تنقض سنة واحدة على سكناه هذه المدينة حتى أرسل والده في طلبه وأدخله مدرسة رگبي حتى يكون تحت رعايته وإشرافه . وقد بقي في هذه المدرسة حتى أتم دروسه فيها ؛ فأرسله والده إلى أكسفورد سنة ١٨٤٦ ليتم تحصيل علومه العالية هناك .

وتوفي الدكتور ارنولد سنة ١٨٤٢ بينما كان ولده الشاب — يقضي أيام شبابه في جامعة أكسفورد بين أصدقائه وخلانه كلكوردج وشارب . وكان له ميل شديد نحو الطبيعة وجمالها فيقضي بين خمائلها الساعات الطوال حالما في أشياء كثيرة لا حد لها . وقد نال بين زملائه وأساتذته سمعة حسنة وذكراً طيباً وحسبه الجميع نابغة الجامعة وعلمها الفذ .

وفي سنة ١٨٤٣ نال جائزة شعرية بقصيدة نظمها يتحدث فيها عن كرومويل ، ولم تكن هذه القصيدة خير قصائده في هذا

العصر بل ظهرت له أشعار أخرى كانت أكثر بلاغة وأوسع خيالا؛ ولو قارنا بها مع قصيدته (الريك في روميه Aiaric AtRome) لعدت من سقط المتاع . وقد نظم هاتين القصيدتين على وزن واحد هو ما يسمونه في الإنكليزية (Heroic Couhrlet) الذي اشتهر أمره في العصر الكلاسيكي فنظم فيه (بوب Poqre) وتلامذته من بعده ، وفي كلتا هاتين القصيدتين نرى سلاسة وعذوبة يندر أن توجدا في شعر شاب لم يتجاوز العشرين من عمره .

ونعرف من مصادر عدة أن ارنولد كان عضوا في جمعية جدال ونقاش تدعى (جمعية العصر Decade) . ولم يكن في صفه من المبرزين على أقرانه بل عد من الطبقة المتوسطة من الطلبة . ولكنه ما كاد ينال شهادته حتى منحته الجامعة حق المجاورة في كلية اورل سنة ١٨٤٥ التي كانت تعد من أعظم الجوائز التي تقدمها الجامعة إلى النابهين من طلبتها .

وبعد أن انتهى من دراسته في جامعة أكسفورد نراه ينتقل إلى مدرسة ركبي ليدرس فيها العلوم والآداب القديمة من اغريقية ولاتينية ، ليصبح سكرتيرا للمركيز لا نسدون الذي كان يعد من أكبر رجال السياسة في عصره ، وله الفضل كله في إصلاح ذات البين بين صفوف حزب الأحرار . وفي تموز سنة ١٨٤٩ ظهرت أولى أناشيده في مجلة (الاكزامنر Exminer) حيث انتشرت انتشاراً عظيما . وقد أهدى هذه القصيدة الرائعة إلى الشعب المجري . ولم تمض بضعة واحدة بعد ظهور هذه الأغنية حتى أخرج ديواناً شعرياً لم ينل من النجاح القسط الذي كان يتوخاه مؤلفه .

وفي الرابع عشر من شهر نيسان سنة ١٨٥١ نصب ارنولد كمفتش لمدارس المعارف ، وكان هذا التعيين نتيجة للمساعي التي بذلها صديقه المركيز . ولم يكن ثمة رجل يستطيع أن يقوم بأعباء هذا المنصب كما قام به شاعرنا ارنولد فقد كان غريزته ميالا إلى الأطفال ، فهو لذلك جد قادر على التعامل معهم ، ناهيك عن اطلاعه الواسع على قوانين علم التربية وأصوله . مما جعله يفكر في القيام بمشاريع عدة لترقية علم التربية في المدارس التي كان يقوم بالإشراف عليها . وسنتناول الإصلاحات العديدة التي قام بها في عالم التربية والتعليم عندما نبحث نظرياته فيهما .

وقد تزوج من فرانسيس وايمان سنة ١٨٥١ بنت أحد القضاة الشهيرين في عالم القضاء . وكانت حياته الزوجية مثلا أعلى للحياة السعيدة الدائمة . فقد ظل وزوجه ترفرف عليهما أعلام السعادة والهناء حتى آخر أيامهما . وفي سنة ١٨٥٧ انتخب أستاذاً للشعر في جامعة أكسفورد . وكان ينافسه في نيل هذا المنصب القس المحترم جون أرنست بود مؤلف كتاب : (مقطعات هيرودتس) وفي الحق أن نيله لهذا المنصب كان أعجوبة في حد ذاتها إذ أن جميع من تبوأوه من قبل كانوا من رجال الدين وحماة اللاهوت يلقون محاضراتهم باللغة اللاتينية .

ولم تكن الرواتب التي تدفعها الجامعة للأساتذة ذات قيمة كبيرة فإزداد راتبه في السنة عن المائة جنيه ، ولكن مشاغله في الجامعة لم تكن بنفس الوقت على جانب عظيم من الكثرة . فكان يلقي محاضراته في اللغة الانجليزية بأسلوب كلاسيكي جذاب ، وقد انحصر موضوعه في عوامل الأدب الحديث إذ جعل للادب اليوناني في عصر بركليس صلة وثيقة بالأدب الانجليزي في عصره . وقد طبعت أولى محاضراته في سنة ١٨٦٩ .

ونراه في بدء سنة ١٨٥٨ يبتاع منزلاً صغيراً في ساحة سنشتر حيث يسكن للمرة الأولى في منزل ثابت . ولكن الظروف لم تكن لتتيح له أن يهدأ ويستقر فكانت وظيفته كمفتش للمعارف تقتضي كثرة الترحال والسياحة ، ومن أسفاره العديدة سفرته الى برنجهام حيث سمع (جون برايت) يلقي احدى محاضراته فكتب ارنولد إلى صديق من أصدقائه « إن برايت محاضر من الطبقة الاولى يمتاز بارتفاع صوته ورباطة جأشه ولكن السهولة لم تكن من صفاته المميزة ، فهو لا يتوقف ولا يتلعثم ، بل لا يندفع الاندفاع الذي أرغبه في الخطباء أمثاله . ومع ذلك كله فهو أخطب بكثير من غلادستون » (١)

هجر أرنولد الشعر وأخذ يهتم بالنثر والكتابة فظهر أول مؤلفاته في شكل رسالة سياسية طبعها سنة ١٨٥٩ وأسماها « انكلترة والمشكلة الايطالية » وفي هذه السنة نفسها انتدبته الحكومة لدراسة أنظمة التعليم في الممالك الاوربية حيث زار فرنسا

(١) Matheu Arnold . By . Poul . P . 56

وبلجيكا ، وهولندا وسويسرا وبدمنت . وقد أعجب بفرنسا الإعجاب كله . وكانت مدينة باريس أحب الى فؤاده من جميع المدن التي زارها حيث شعر بالراحة والدعة . وهناك اجتمع بلورد كوبى مدة لا تقل عن ثلاثة أرباع السنة بحث أثناءها كثيراً من الأمور ختمها بقوله : « لقد شاركني اللورد فى الإعتقاد بأن الفرنسيين يتفوقون على جيرانهم الألمان فى كل أمر يتنافسون فيه[1] » .

ولما رجع إلى إنكلترة انضم إلى زمرة متطوعى الملكة . ولكنه لم يكن قط ميالا إلى استخدام البريطانيين فى الجيش والجندية . وكانت نظريته فى الجندية غريبة كل الغرابة لا تنطبق على الحقيقة ، إذ أنه كان لا يعتقد بوجوب المساواة فى الجيش ، فالطبقة الوسطى يجب أن تمنع من الإختلاط بسائر الطبقات الأخرى .

ونراه فى سنة ١٨٦٤ يجتمع بمستر دزرائيلى السياسى البريطانى المشهور فى قصر البارون دى روتشيلد . وكان هذا الداهية البريطانى يميل كل الميل إلى الأدباء ويحترمهم احتراماً كليا . ولذا عامل ارنولد بلطف زائد وخاطبه بقوله : « إن لك مستقبلاً باهراً تناله بجدارة واستحقاق[2] » .

وفى سنة ١٨٦٧ استقال ارنولد من منصبه فى جامعة أكسفورد حيث خلفه السير فرانسيس دويل الشاعر الإنكليزى المعروف . وكان ارنولد مشغوفاً جداً بهذا المنصب الذى تخلى عنه ، ولذا نراه شديد الأسف لاضطراره للاستقالة من عمل أحبه كل الحب .

وفى سنة ١٨٦٥ انتدبته الحكومة مرة أخرى للتفتيش على المدارس الأوربية المختلفة . وكان يقابل هذه المهام بفرح وسرور زائدين مما جعل زملاءه يختارونه لكتابة التقارير عن رحلاتهم وعما يشاهدونه فى المدارس المختلفة فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وسويسرا . وكان لعدم إلمامه بفن الرسم والبناء أثر فى تقاريره فنراه غير معجب بإيطاليا كما كان ينتظر منه . وفى مدينة فلورنسه ينتقد الإيطاليين لتقليدهم الفرنسيين تقليداً أعمى

وفى أكتوبر سنة ١٨٦٥ نراه فى مدينة زوريخ حيث سمع لأول مرة بوفاة لورد بلمرستون فكتب رسالة إلى والدته يطلعها على أفكاره السياسية وعلى تحيزه الشديد لحزب الأحرار ، فيقول فى رسالته هذه إن اللورد بلمرستون لا يصلح مطلقاً لقيادة الأمة التى تسلم قيادتها كبت أو لبول أوبيل ، فوفاته لا تحسب خسارة وطنية كبرى للأمة والشعب .

وفى نفس السنة نراه يتقدم لطلب وظيفة (مندوب الإعانات) ولم يكن فى بريطانيا كلها من هو أجدر منه بهذا المنصب ، ولكن العادة جرت أن تسند هذه المهمة إلى أحد رجال القانون . وكان الرجل المكلف له بانتخاب أحد المتقدمين لهذا المنصب صديق من أصدقاء ارنولد ومحبيه ؛ ولكن تدخل غلادستون فى الأمر حرمه هذه الوظيفة لمخالفته إياه فى آرائه السياسية . وقد لازمه سوء حظه فى السنة التالية حين تقدم لوظيفة خازن المكتبة فى مجلس العموم البريطانى يؤازره نفر غير قليل من كبار الساسة كدزرائيلى وغيره . ولكنه فشل للمرة الثانية لمعارضة دينسون رئيس المجلس ومقاومته .

وفى سنة ١٨٨٣ نراه يغادر انكلترة إلى أمريكا ليلقى بضع محاضرات طلب الأمريكيون إليه إلقاءها . وكانت شهرته فى هذه السنوات قد ازدادت وعمت العالم الأوربى كله . وقد أم الناس على اختلاف طبقاتهم هذه المحاضرات فجمع قدراً غير يسير من المال ساعده على ترفيه نفسه والإعتناء بحياته بشكل جدى . وحين كان فى أمريكا ذهب الرئيس برانت رئيس الجمهورية الإمريكية للاستماع إلى إحدى محاضراته حيث لم يع شيئاً مما قاله الخطيب . وكان ارنولد فى الحقيقة خفيف الصوت تعوزه المقدرة الخطابية ولذلك ذهب إلى جامعة بوستن ليدرس هناك فن الخطابة فلم يلق نجاحا يذكر .

وفى خريف سنة ١٨٨٥ انتدبته الحكومة مرة ثالثة لدراسة أنظمة التعليم الإبتدائى فى ألمانيا وفرنسا وسويسرا . وكان الغرض الأساسى من رحلته هذه الاطلاع على المصروفات التى يدفعها الآباء عن أبنائهم ، وعن مقدار المساعدة التى تقدمها البلديات للحكومة للقيام بهذا الأمر الحيوى . فكتب تقريراً ضافياً بلغة أضعف من اللغة التى كتب بها تقاريره السابقة .

وفى هذه السنة نفسها استقال من منصبه الحكومى طلباً

(١) Arnold's Letters. Vol. I. P. 96

(٢) Matheu Arnold. Paul. P. 72